تمثلات الهوية في الشعر الملحون الجزائري
قراءة في قصيدة ولد العجوز

Representations of identity in Algerian malhon poetry
Reading in the poem of the old woman

د.مسعودة مرسلي
المركز الجامعي أحمد بن يحيى الونشريسي- تيسمسيلت(الجزائر)
messa.morsli@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/12/14 تاريخ القبول:2019/03/17 تاريخ النشر: 2019/04/01

الملخص:

مازال التراث الشعبي المغاربي عامة والجزائري خاصة حافلا بالنصوص الشعرية والنثرية التي لا يمكن أن نقول إنها لم تدرس بعد بل إنها لمّا تكتشف وتجمع بعد، وبقيت مشتتة يتناولها الإهمال من جهة والنسيان من أخرى، والبحث عن الشرعية الأكاديمية من جهة ثالثة، فمازال الدارسون مختلفين حول أحقية هذا المخزون الثري بالعناية والدراسة، فانقسموا بين مهتم به دراسة وجمعا، وبين منتقص ومنكر لقيمته، وقد تناسى الفريق الثاني أنّ هذا الزخم يحمل تصورات فئة عريضة من فئات المجتمع الجزائري ويصور آمالها وآلامها، ويعبر عن أفكارها في صورها البسيطة والمعقدة، وفي هذا الإطار أقدم مداخلتي التي رأيت أن أوسمها بـ" تمثلات الهوية في الشعر الملحون الجزائري، قراءة في قصيدة ولد العجوز "

الكلمات المفتاحية: التراث الشعبي; الشعر الملحون;الهوية; الإسلام; العروبة;الوطن.

ABSTRACT :

The popular heritage of the Maghreb in general and the Algerian in particular is full of poetic and poetic texts, which can not be said that they have not yet been studied. They are not yet discovered, yet they are still dispersed, neglected and neglected. The scholars are still different about the right The second group forgot that this momentum holds the perceptions of a broad category of Algerian society and depicts its hopes and pains, and expresses its ideas in its simple and complex images, and in this context oldest My intervention, which I saw to be called "The Representations of Identity in Algeria's Malhoun Poetry, A Reading in the Poem of the Old woman"

Keywords: Popular heritage; malhon poetry; identity; Islam; Arabism.

نص المقال:

ينتمي كل نص -سواء أكان فصيحا أم عاميا- إلى منظومة فكرية أنتج داخلها وتشكّل بقوالبها ووفق أطرها، ولا يشترط لتلك المنظومة أن تكون رسمية ليعبّر عنها النص، بل يجب على النص أن ينفلت من قيود الرسمي ليكون المصوّر الحقيقي لجزئيات المجتمع وغائرا في حفرياته بعمق، فالمنظومة الفكرية الرسمية وما يقابلها من أدب رسمي لا تصور إلا فئة قليلة من فئات المجتمع، ولا تعبّر –في الغالب- إلا عن أفكار تلك الفئة وهمومها وطموحاتها، لتبقى فئات عريضة من المجتمع تنشد من يصوّر حالها ويكون صوتها الناطق باسمها، فشكّلت فنونا خاصة بها، مازال الخلاف دائرا حول تصنيفها وتسميتها، ومن تلك الفنون التي أبدعها الفكر الشعبي ما يعرف بالشعر الملحون* الذي أبدع الشاعر الشعبي ضمنه قصائد تغنّى بها الزمن، خلّد فيها مآثر الأمة وبطولاتها، وصوّر أبطالها والمعارك التي خاضوها، ومن تلك النماذج قصيدة "ولد العجوز" والمعروف في الثقافة الشعبية بـ"قصيدة العلا"، والتي سأحاول من استجلاء ملامح الهوية في الشعر الملحون من خلالها.

1-الهوية وتشكلها:

لكلّ مجتمع خصائصه التي تميزه عن غيره من المجتمعات داخل المنظومة الإنسانية يمكن أن نقابل تلك الخصائص بالجينات الوراثية للجسم البشري، وكما أنّ لكل جسم مواصفاته المميزة فإنّ لكل مجتمع إنساني خصائصه المميزة التي تمثل مجتمعة هويته وتفرده، وهي مع ذلك من أكثر المفاهيم تعقيدا وحساسية خاصة داخل المجتمعات التي تعرف تنوعا عرقيا وثقافيا، فيمثل البحث فيها عن الهوية الجامعة من أكبر التحديات أمام تماسكها واستمراريتها.

ومن أجل توضيح الأمر لابد من التعرض لمفهوم الهوية، والذي عرف تعددا وتنوعا يضيق المقام عن حصرهما، وإذا عدنا إلى التراث العربي الإسلامي فإننا نجد حضورا للفظ في تعريفات الجرجاني فـ«الهوية الحقيقية المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق»[1]، فهي عنده مجموعة الخصائص الموجودة في الشيء بالقوة حتى إذا خرج إلى الحياة أصبحت موجودة بالفعل.

والتعاريف التي قدمت لتحديد مفهوم الهوية عند الدارسين المعاصرين كثيرة وتكاد تفوق الحصر، فهي عند جون لوك مرتبطة بالشخص نفسه فـ«ما يجعل الشخص هو نفسه عبر أمكنة وأزمنة مختلفة، هو ذلك الوعي أو المعرفة التي تصاحب مختلف أفعاله وحالاته الشعورية من شم وتذوق وسمع وإحساس وإرادة، تضاف إليها الذاكرة التي تربط الخبرات الشعورية الماضية بالخبرة الحالية، مما يعطي لهذا الوعي استمرارية في الزمان»[2]، هذا عن هوية الشخص أو الهوية الفردية المتميزة عن الآخر.

ومجموع الهويات الفردية يشكل هوية الجماعة أو ما يعرف بالهوية الجمعية، والتي تعني عند فون كرون باون: «نسقا مغلقا من القيم، تصدر عنه المجموعة المعينة، قصد إيجاد الحلول لمشكلاتها التي تعترضها في تطورها التاريخي، مع المحافظة على عبقريتها في التميز»[3]، وتزداد بروزا كلّما اشتد وعي المجموعة بها وبمكوناتها.

وفي ظل العولمة والحملات الشرسة التي تدعو إلى سلخ المجتمعات عن قيّمها وجعلها نسخة عن بعضها تعالت في المقابل نداءات تدعو إلى التمسك بالهويات الوطنية والتشبث بثوابتها واختلفت حدة مقاومة التغيرات من مجتمع لآخر، ومن منظومة فكرية إلى أخرى، ولكن يكاد يقع الاتفاق حول عناصرها التي لا تخرج عن الدين واللغة والثقافة والتاريخ والأرض، فبعض عناصرها ثابت والآخر قابل للتغيير، يرى الباحث إبراهيم بوتشيش «أن تغير الهويات ينبغي أن يخضع لقانون التوازن بين الثوابت المميزة للهوية والعناصر القابلة للتحول، وإلا لكانت الهوية عرضة للخطر والتدمير، فالهوية تتضمن مكونات ثابتة، وأخرى قابلة للتغيير، ويعتبر الدين واللغة من الثوابت الراسخة، بينما تكون

المكونات الأخرى من عادات وقيم وطرق تفكير قابلة للتغيير الشكل الإيجابي الذي تحدده حركة المجتمع وتفاعله بمحيطه الخارجي»(4) ، فالثابت منها يمثل عنصر الوجود والتفرد، والمتغير يمثل عنصر الديمومة والاستمرارية.

2-النص الموضوع والتأصيل:

النص الذي بين أيدينا نص مطول -يتكون من مائة وأربعة عشر بيتا- يمكن أن يصنف ضمن شعر البطولات والملاحم التي اخترعها العقل الشعبي في فترة زمنية كان فيها في أمس الحاجة إلى بث روح الحماسة في نفوس المتلقين، وهذه القصيدة المغناة من القصائد المطولة أخذت نصها سماعا عن أغنية مسجلة "للشيخ أحمد المازوني" والتي لم أجد نسبة لها، ولم يذكر ناظمها في نهاية القصيدة ولم أتمكن من معرفة إذا ما كانت القصيدة مبتورة أو أن ناظمها اختار لها تلك النهاية المتميزة فنيا والتي تتناسق مع الحدث:

اطلبْ لي عالم الخفا يعجل بيا * كي نتلاقى بالعلا قلبي يهمد**

ماتت في حجر النبي سيد رقية * هي ووليدها ادفنهم محمد**

وملخص القصيدة أن الرسول خرج ذات يوم في أصحابه:

خرج وحد النهار بابا فاطمة * يتمشاوا معاه ساداتي لبرار**

ورأى فتية يتبارون فأعجب بأحدهم والذي تمتع بهاء وشجاعة تميز بهما عن أقرانه:

يجبر قدامو جماعة ملتمة * ما بلغوش صيامهم شبان صغار**

فيهم وحد الشباب مطبوع الهمة* وبالقوة مشهور فازعلى لنظار**

ولهذا طلب الرسول من أمه أن يرافقهم الفتى في الجهاد:

قال لها جيت للعلا عز عليا * نديه مع صحابنا يغدى يجاهد**

ولم يكن من الأم إلا أن تقبل على مضض لصغر سن ابنها ووجوب طاعة الرسول ورغبة ابنها الشديدة في مرافقته:

أنا ولدي صغير ما يعرف حيه * ما زال صغير في كمي يرقد**

ما عندي في المكان غيره ذرية * راك تشوف لخيمتي ما عندي حد**

قال لها ولدها اسّي حتى انتيا * ماشي ذي القول آمّا منك فاسد**

فقامت بتزيينه وتزيين فرسه والتحق بالجيش فقاتل ببسالة إلى أن سقط شهيدا:

حاروا فيه بنات زنجار العديان * مقرنص كالطير من شافه يرهب**

واحمل سيد العلا على قوم الخزية * واجبد سيفو ذكر كبّر وشهد**

قتل قوم كثير من قوم العدية * ما منع غير اللي هرب واللي شهد**

خدعوا ذمي من الكلاب الذمية * ضربه خدعة طاح للأرض مسند**

ولما عاد الجيش وكانت الأم بانتظار ابنها راحت تسأل من كان معهم فلم يجبها أحد وساعتها أدركت أن ابنها قد استشهد:

ورجعوا المجاهدين في يوم وليلة * وصابوا أم العلا تسقسي في الخطار**

ودمعتها سايلة وهي مهبولة * وهي تعيط وتقول عيدوا لي لخبار**

وعيدوا لي العلا ضو النجلا * وراه عماني على العقايب من لبصار**

فاشتد بكاؤها وحزنها عليه، وخيرت بين أن تعود إلى شبابها وترزق بمثله أو أن تلحق به فاختارت اللحاق بابنها:

اطلب لي عالم الخفا يعجل بيا * كي نتلاقى بالعلا قلبي يهمد**

ماتت في حجر النبي سيد رقية * هي ووليدها ادفنهم محمد**

وهذا النص وإن كان يصنف ضمن شعر السير والمغازي نظرا لارتباط قصته برسول الله صلى الله عليه وسلم وغزواته مع صحابته، والتركيز على قصة استشهاد ذلك الطفل صاحب العشر سنوات وأمه العجوز إلا أني لم أجد له نسبة في سيرة رسول الله ولا في كتب المغازي، ولعل السبب في ذلك يعود إلى «أن أدب السير والمغازي يعد مزيجا من العلم والخيال، فهو علم بقدر ما يعتمد على الواقع، وهو خيال بمقدار ما يلعب به الخيال في رواية كثير من الأخبار»[5]، خاصة مع الاعتماد على الرواية الشفهية، إذ يلعب المخيال الشعبي في إضفاء سمات خاصة بكل من زمن الحكي ومكانه بما يتلاءم تماما مع البيئة والمتلقين.

وإن كان هذا الجنس مرتبطا بظهور الدعوة المحمدية ونشأة الغزوات وانطلاق الفتوحات إلا أنه عند الشعوب راح ينفلت تدريجيا من صبغته التأريخية ليلعب دورا حماسيا في مختلف مراحل الأمة الإسلامية خاصة تلك التي كانت تعاني فيها من الأزمات الشديدة، يقول المستشرق الفرنسي ج ديسبارميه عن أصول المغازي «منذ القرن الرابع عشر تقريبا وبالتحديد منذ أن بدأ الفتح العربي ينسحب أمام العودة الهجومية أمام المسيحية، أنتجت أرض الإسلام أدبا يحمل اسم المغازي من نفس طبيعة الغزوات التي نتحدث عنها، وهو أدب مجهول بالنسبة لنا، يختفي تحت قناع اسم طموح ومستعار ويتمثل هدفه الوطني إنقاذ ماء الوجه والتذكير بالانتصارات الماضية لنسيان الذل المعيش في الحاضر، وقد أنبت الغزو الفرنسي للجزائر الجذع القديم لرواية الفروسية الإسلامية فرعا جديدا»(6) ، وقد أدرك الاستعمار ذلك الدور ولذلك نجده ضيق الخناق على من كان يمارس مهنة المداح أو القوال.

تلك الوظيفة التي كما أدرك الاستعمار وظيفتها أدركها في الوقت نفسه جمهور المتلقين «ولهذا التف حوله [القوال أو المداح] الناس يسمعون الأخبار الجديدة ويتمتعون في الوقت نفسه بما يقصه

علـيهم مـن حكايـات تحمـل البطولـة والشـجاعة والتحـدي، أو أخـرى تزخـر بالمعانـاة والحـزن، فتبعـث في نفوسـهم الشـفقة وتحـثهم علـى التضـامن والتـآزر فتلعـب بـذلك دورا تكوينيـا تربويـا»(7) ، والـذي كـان متلائما مع معارف المتلقين وثقافتهم، ومتلاحما تماما مع عواطفهم.

ملامح الهوية في قصيدة ولد العجوز:

يكـاد يقـع الإجمـاع حـول العناصـر الأساسـية المكونـة لهويـة شـعب مـن الشـعوب والمتمثلـة أساسـا في «الثلاثـي المتكـون مـن الـدين واللغـة والثقافـة [فهـي] المرجعيـة الأساسـية والحـدود السـيكولوجية للجماعـة وشخصـيتها القاعديـة»(8) ولا تقـوم هـذه الأركـان الثلاثـة إلا علـى حيـز جغرافي ومـع مجموعـة بشـرية معينـة لـذلك لا نجـد أن بعـض الدارسـين قـد جعلـوا هـذين العنصـرين مـن مقومـات الهويـة، ولـيس ذلـك إلا تحصـيل حاصـل، فعناصـر هويـة شـعب مـا هي مـا يضـمن وحدتـه وخصوصـيته وتجانسـه في حيز زماني ومكاني ما.

1-البعد الإسلامي:

إن المعلـم الأول مـن معـالم الهويـة الجزائريـة هـو الـدين الإسـلامي إذ حولـه يقـع التوافـق والاجتمـاع، وفي هـذا الـنص وغيره مـن النصـوص ذات الطـابع الـديني يتجلى هـذا الملمـح بوضـوح، خاصـة في هـذا الضـرب المعتمـد على سـرد البطـولات مـن أجـل اسـتنهاض الهمـم، جـاعلا القـص هـو سـبيله «إلى الـدعوة والإرشـاد والموعظـة الحسـنة، فقـد كـان للتوحيـد أثـره البـالغ في هـذا النـوع مـن القصـص الشـعبي، حيـث يسـاير الـراوي ذوق مسـتمعيه، فيحشـو هـذه الأخيـرة بالعبـارات الدينيـة، والتي منطلقهـا كتـاب الله وسـنة نبيـه الكـريم، عليـه أفضـل الصـلاة وأزكى التسـليم، وكـذا أخـلاق الصـحابة رضـوان الله علـيهم»(9) ، ويتجلى ذلك الحضور من خلال ما يأتي:

أ-الاستفتاح بالبسملة والصلاة على رسول الله (ﷺ):

يسـتفتح الشـاعر قصـيدته علـى طريقـة شـعراء الملحـون بمعـاني التوحيـد والتسـبيح والتقـديس لله عزّ وجلّ، يقول:

بسم الله بديت هاذي القصيه * ولا إله إلا الله رب الواحد**
سبحان رب العلوم الخفيه * السميع البصير ما لا كيفه حد**
يعلم ما كان في السفل والعليه * والمخلوقات عايشة بيه مقيد**

كما لا يخلو الاستفتاح من الصلاة على الرسول الله (ﷺ):

صلى الله على إمام الأنبيا * وراحة القلوب سيدي محمد**
صلى الله عليه ألف وميه * وعدد الماشيين وطيور تفيد**
وعدد البر والبحور الموطيه * والناطق والباكمة واللي جامد**
وعدد الأرض والسماوات العليا * والبدر مع النجوم والشمس توقد**

والصلاة على النبي هي من وسائل التقرب لله عزّ وجلّ ومن الأذكار التي يحسن بالمسلم ترديدها والمواظبة عليها.

ب-أركان الإيمان:

من ملامح البعد الديني في القصيدة الإشارة إلى ركن من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقضاء والقدر، وذلك ما نجده في قول الشاعر:

والمكتوبة بلا دواية وقلومه * تلحق بالعبد آمّا والله لو طار**

جرايد ربي في الجباين مرسومة * الأجل محدد آمّا بإذن القهار**

ج-مدح رسول الله ووجوب طاعته:

كما تطرق الشاعر إلى ذكر أوصاف النبي محمد (ﷺ) ، وأنه معلم الأمة:

وإذا سألوا النبي على وحد الكلمه * يوريهم ميتين من دين القهار**

باتوا ثمة مع إمام العلما * ما فارقوه حتى لغدوة نص نهار**

وهذا موافق لما تنزل به الذكر الحكيم: ﴿**كَمَا أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾ [البقرة: 151]

وما يجب على المسلمين إلا طاعة رسول الله والامتثال لأوامره، فطاعته من طاعة الله عزّ وجلّ: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا**﴾ [الأحزاب: 36]، وهذا ما توافق معه قول الشاعر على لسان الفتى حين رفضت أمه فكرة ذهابه إلى الجهاد بسبب حداثة سنه وقلة خبرته:

قال لها ولدها امّي حتى انتيا * مشين ذي القول آمّا منك فاسد**

ففساد قول الأم وشناعته كان بسبب مخالفتها لأمر الرسول.

ومن أوصاف النبي المذكورة في القصيدة صفة الشفاعة، المتكررة في العديد من الأبيات:

سقساهم شفيعنا سيد رقية * وقال لهم يا أصحابنا لمن ذي الولد**

وصفة تلقي الوحي:

وهذاك يجيه الخبر من السما * وجبرائيل يجيه من عند القهار**

د-الإشادة بالصحابة والترضي عنهم:

يحظى صحابة رسول الله (ﷺ) بمكانة خاصة في المنظومة الفكرية السنية، وذلك متفق مع وصية رسول الله لأمته «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضّوا عليها بالنواجذ»(10)، والخلفاء الراشدون هم أعلى الصحابة مرتبة، ومن الأحاديث المرفوعة المتداولة بين

العامة «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» وليس هذا إلا من باب الإشادة بمن آمنوا برسول الله ونصروه وحاربوا معه:

والرضا على رفاقه رهج العديه * وفرسان الجود والحيا فرسان الضد**

فهم الفرسان الكرام ذوو الأخلاق العالية والشجاعة والبأس والذين يذيقون أعداءهم أشد العذاب.

وجعلت الثقافة الشعبية من أولئك الأعلام قناديل يهتدى بها فـ«تفنن الشعراء الشعبيون في المدح والإشادة بآل البيت وعلى رأسهم على بن أبي طالب، الذي أصبح بطلا أسطوريا، جعلت له الذاكرة الشعبية جوادا وسيفا أنزلا من الجنة لهما مواصفات خاصة، فالجواد يطوي الأرض طيا، أما السيف فهو من الثقل بحيث لا يستطيع حمله أربعون رجلا، وبهما –الجواد والسيف- اتخذ علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- هذه القوة الأسطورية يستنجد بها الشعراء»[11]، وهو المسمى في الشعر الشعبي علي حيدر لبسالته وشجاعته:

وقالولها سالي عمام رسول الله * هوما حضروا معاه في شاو المشوار**

ولا مول الحدايد اللي منزولة * ومن يلغولوا في الكتوب علي حيدار**

وتوظيف لفظة "الكتوب" (الكتب) لإضفاء صبغة رسمية على تلك التسمية وتلك المكانة التي يحظى بها على بن أبي طالب في منظومة المعتقدات الشعبية العربية.

هـ-الملمح الصوفي:

يحمل النص ملامح التصوف وهو الاتجاه السائد على ذهنية الكثير من طبقات المجتمع الجزائري، خاصة خلال فترة تواجد الأتراك وما تلا ذلك خلال الحقبة الاستعمارية، يقول الشاعر:

هاذاك اللي تفرقت منه لشيا * الجنة والناروالسما والارض**

جدك وباباك وأنا وانتيا * يجعلنا في ضمانته ذاك القاعد**

هذا الكلام موجه من الفتى "العلا" لأمه حين حاولت منعه من الذهاب للجهاد، والاعتذار من الرسول حتى يرجع عن طلبه في مرافقة ابنها، ولكن بهذه الأوصاف الخاصة بالنبي –وفق معتقدات بعض المتصوفة- من أنه أصل الخلق، أو أن الدنيا بما فيها خلقت لأجل محمد عليه الصلاة والسلام.

كما استخدم الشاعر من معاني الصوفية عبارة "أصحاب النية" والتي قصد بها تلك الفئة التي كشف عنها الحجاب فرأت بعيون القلوب ما لا يراه الناس بعيون البصر:

حتى جاها راجل من أصحاب النية * قال لها يا عجوز نعطيك افايد**

ولدك من وسطنا اداته حورية * بين الصفين رايحة فيه تڤود**

و-المعاني ذات البعد الديني:

وتجنبا للإطالة اخترت أن أشير إلى بعض المعاني المذكورة في القصيدة، تلك المعاني التي تنتمي إلى المنظومة الفكرية الإسلامية كالجهاد والشهادة والحياة بعد الموت وغيرها -وهي كثيرة في القصيدة- وليس ذلك بغريب عن هذا النوع من القصائد التي تهدف أساسا إلى بث روح الجهاد في نفوس السامعين، «وقد نبع الشعور الوطني من روح إسلامية أصيلة واعتزاز كبير بالوطن، وامتزج ذلك في وحدة متكاملة، هي التي يؤمن بها الشاعر الشعبي، امتدادا لرسالة الإسلام التي حققها المسلمون الأوائل، مما يضفي عليها قدسية في سبيل الحرية والكرامة ويحفز الإنسان للإصرار على النصر»[12]، ومن الأبيات التي تؤكد على تلك الروح:

قال لها جيت للعلا عز عليا * نديه مع صحابنا يغدى يجاهد**

ومن المعاني التي تُموضع هذا النص ضمن منظومة فكرية واجتماعية تؤكد على الانتماء الإسلامي توظيف كلمة الذمي، والتي منها قول الشاعر:

خدعوا ذمي من الكلاب الذمية * ضربه خدعة طاح للأرض مسند**

فلفظ "الذمي" المستخدم هنا مأخوذ من الذمة وهي «إقرار بعض الكفار على دينهم على وجه معين»[13]، وأهل الذمة هم المعاهدون على دينهم من غير المسلمين والذين يعيشون في أحضان الدولة الإسلامية، وهذه الفئة تمثل وجها من وجوه الآخر داخل المجتمع، الذي يلعب دورا حيويا في رسم ملامح الهوية كما يرى محمد مسلم «فإنّ الصورة عن الذات لا يمكن لفرد أن يكونها بعيدا عن الآخرين بل يجب أن تظهر بالمقارنة معهم»[14]، وهذا الآخر -الذمي- لا يدخل في دائرة الأعداء بحسب الشريعة الإسلامية.

ولكننا نجد أن الشاعر ألحق بهذه الكلمة صفات الانتقاص والاحتقار، ولعل هذا عائد إلى طبيعة تلك العلاقة بين المسلمين وغيرهم خاصة اليهود الذين أصبحوا موالين للاستعمار الفرنسي، ولم يراعوا عهود الذمة التي كانت بينهم وبين أهل البلد، أو حق المواطنة كما يسمى في الدولة المعاصرة.

2-البعد العربي:

العروبة ليس عرقا ولا جنسا وإنما نقصد بها ذلك الانتماء الشعوري إلى ثقافة معينة، وذلك اللسان الذي نتواصل به والذي ذابت معه كل الفوارق في ظل وجود استعمار يحاول جاهدا القضاء على هذا المقوم حتى تمحي هوية الأمة ويتمكن من استئصالها باستئصال مقومات هويتها، ولغة القصيدة تصور لنا فكر الشاعر وعقيدته، ليس هو فحسب بل إنها وعاء حامل لتصورات ومعتقدات جيل أو أجيال كاملة في مرحلة تاريخية من مراحل هذا البلد.

ويمكـن أن نستشـف روح العروبـة في مجموعـة مـن الأبيـات نقتصـر على بعضـها، ففـي البيـت الآتي يقول الشاعر:

ما نعرفوه من عرب بنو مية * ولا ظنيت هاشمي يا محمد**

جـاء البيـت في معـرض رد الصحابة عـن سـؤال الرسـول عـن الفتى، فأجـابوه أنـه قـد يكـون مـن عـرب بني أميـة أو قـد يكـون هاشـميا، وبنـو أميـة وبنـو هاشـم مـن فـروع قبيلـة قـريش العربيـة، ولـيس هـذا إلا لربط النص ببعده العربي.

كمـا وصـف الجـيش المجهـز للقتـال بالعروبـة والـذي لـم يخـل مـن "العربيـات" اللـواتي كـن يـراقبن صفوف الجيش من الهوادج:

كي بان الحال ساڤ ركبة العربان * والعربيات من العطاطيش ترڤب**

وهـذا يـذكرنا بتلـك الأناشـيد الثوريـة التي تؤكـد على وقـوف النسـاء جنبـا إلى جنـب مـع إخـوانهن الرجال، فهاهي بنت الجزائر تعلنها مدوية:

أنا بنت عربية * وشعاري الوطنية**

أفتدي أرضي وعرضي * بدمي يوم الحمية**

3-البعد الثقافي:

يحمـل هـذا البعـد الكثيـر مـن المنـاحي التـي ترسـم ملامـح الهويـة لجماعـة مـا، مـن أخـلاق ومعتقـدات وأعـراف وجميـع طـرق العـيش والتفكير عنـد مجموعـة معينـة، فـ«الهويّـة الثقافيّـة هي المعبّر الأساسـي عـن الخصوصـيّة التاريخيّـة لمجموعـةٍ مـا أو أمـةٍ مـا، إضـافةً إلى نظـرة هـذه المجموعـة أو الأمـة إلى الكـون والمـوت والحيـاة، إضـافةً إلى نظرتهـا للإنسـان ومهامـه وحـدوده وقدراتـه، والمسـموح لـه والممنـوع عنـه، إذاً فـإنّ الهويّـة الثقافيّـة عبـارة عـن عـددٍ مـن التراكمـات الثقافيّـة والمعرفيّـة»[15]، ونظـرا لشسـاعة هـذا المعـطى -الثقافـة- طـابق أو كـاد مفهـوم الهويـة في حـدّ ذاتـه، فأصـبح الكـلام عـن هويـة المجتمـع هـو كـلام عـن ثقافتـه، والكـلام عـن الثقافـة هـو كـلام عـن الهويـة، ولعـل هـذا مـا جعـل الجـابري يـدرج الهويـة الدينيـة ضـمن الهويـة الثقافيـة[16]، ولهـذا سـندرس بعـض تلـك الملامـح في القصـيدة نظـرا لكثرتها وتجليها للقارئ:

أ-المعاني الأخلاقية:

يتبنى كـلّ مجتمـع مـن المجتمعـات منظومـة أخلاقيـة يـنظم بهـا أطـره الاجتماعيـة والعلاقـات الإنسـانية بـين أفـراده، وأخـلاق المجتمـع المغـاربي والجزائـري لا تخـرج عـن منظومـة القـيم المسـتوحاة مـن حضـارة هـذا الإقلـيم الجغرافي –شـمال إفريقيـا- ومـا آمـن بـه قـاطنوه على مـر الحقـب الزمانيـة، يقـول ابـن خلـدون عـن أخـلاق البربـر «أمـا تخلقهـم بالفضـائل الإنسـانية وتنافسـهم في الخـلال الحميـدة، ومـا جبلـوا عليـه مـن الخلـق الكـريم مرقـاة الشـرف والرفعـة بـين الأمـم ومراعـاة المـدح والثنـاء مـن الخلـق مـن عـز

الجوار وحماية النزيل، ورعي الأذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكارم والثبات في الشدائد وحسن الملكة والإغضاء عن العيوب والتجافي عن الانتقام ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير أهل العلم وحمل الكلّ وكسب المعدوم. وقرى الضيف والإعانة على النوائب وعلو الهمة وإباية الضيم ومشاقة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه»[17]، وهذه الأخلاق زادها الإسلام نصوعا وقوة وامتزجت بأخلاق العرب، فشكلت تناغما عاش في كنفه سكان الشمال الإفريقي.

ومن ذلك نبذ المعاني التي تتنافى مع المروءة والأخلاق النبيلة والتي تنتقص من الرجولة، وذلك ما تكرر في موضعين من القصيدة، الأول في قول الشاعر:

وقال لها لا تعلقي فيا لومة * ماني هدار آمّا ما جبت اخبار**

فالمجتمع الجزائري الذي هو امتداد للمجتمع العربي يهيب بالرجل أن يكون ثرثارا أو نمّاما، ناهيك أن يكون فارسا يحمل راية الجهاد.

والمعنى ذاته يتكرر في البيت الآتي:

أنا ولدي ما يحدث من والا * ما قالوا في ڤفاه وكّال وهدّار**

ففي البيت الأول نجد الفتى ينفي عن نفسه صفتين معيبتين "هدّار" و"ما جبت اخبار"، الأولى صيغة مبالغة للدلالة على كثرة الكلام والثانية للدلالة على السعي بالنميمة أو الوشاية، أما البيت الثاني، فالأم هي التي تنفي عن ابنها تلك الأخلاق المنبوذة والتي تدور حول الثرثرة والجشع.

وهذا يحيلنا إلى ما نظمه الشنفرى في لاميته في العصر الجاهلي، والتي تصور بدورها منظومة القيم التي يعيش الشاعر في كنفها[18]:

هم الأهل لا مستودع السر ذائع * لديهم ولا الجاني بما جرّ يخذل**

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن * بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل**

فالذي جعل الشنفرى يهجر قبيلته ويتخذ من الوحوش رفيقا هو أنهم يحفظون السر، وهذا تعريض بالمجتمع البشري الذي غابت عنه هذه الصفة، كما نجده يفخر في البيت الثاني بتحليه بصفة القناعة إذ الجشع معيب في حق الرجل، وجعَل العجلة في مدّ اليد إلى الطعام دليلا عليه.

كما تظهر العديد من الملامح الأخلاقية كالفرح بالضيف وإكرامه:

قالت سعدي وفرح قلبي كي مية * ما قوى زهري اليوم ونهاري ساعد**

ذيك الفرحة دارت اماد نقية * ومرحبا بيك ضفتني آمحمد**

وخلق الحياء والعفة، وهما وهي الصفات التي تتحلى بها المرأة وفق المنظومة الأخلاقية المستقاة من الدين والبيئة:

من ذاك الشي استحات السنية * وقالت سيدي ادّيه منين تصد**

وكلمة السنية المتكررة في القصيدة تحمل دلالة خاصة نابعة من عمق المجتمع وتقاليده، فالمرأة السنية هي المرأة التي لا تخرج من بيتها بل وتحتجب عن الرجال الأجانب حتى داخله، وهذا التقليد أشار إليه قنصل أمريكا في مذكراته «ونساء الطبقة الراقية لا يخرجن إلا قليلا، أو قل إنهن لا يخرجن إطلاقا»[19] وهذا الوصف أقرب ما يكون لوصف "السِنِّيَة"

ب-ملامح اللباس:

لا تخرج الأزياء –كملمح مادي- عن تشكيل هوية القوم فـ«الزي التقليدي جزء لا يتجزأ من تراث الأمة، ومظهر من مظاهر الهوية الجماعية للأمة، لذلك نرى الرؤساء والملوك يظهرون به في المناسبات الرسمية والأعياد، وفي ذلك اعتراف بهويتهم الأصلية وتثمين لهذا العنصر»[20] الذي عادة ما يبرز من خلال البرنوس والعمامة والجبة (الجلابة أو القشابية)، كما يمكن الإشارة إلى أن هناك اختلاف بارز بين اللباس المدني واللباس العسكري، والذي تظهر بعض ملامحه من خلال النص:

ودخلت لدارها لعجوز السنية * وجبدت من قشها غرايروو ساید**

وجبدت لوقاط من الملف اللي غاية * ومطبق مدسوس لباسه عايد**

حتى للعنق لبساته صدرية * ما هيش وافية ألا حد المرود**

دارت فوق راسه اطبع شاشية * مرفوعة عبر الصبع في ذاك القد**

زادت له فوقها عمامة مكية * شدت له بالحرير لكحل تحت الجلد**

فاللباس الذي جلبته الأم كانت قد خبأته، وعادة ما تخبئ المرأة الجزائرية ثياب الزينة لأبنائها ليوم الختان أو العيد أو الزواج، واليوم هنا هو يوم الخروج للجهاد، وما يلفت الانتباه هو وسيلة الحفظ "غراير ووساید" الغراير جمع غرارة وهو كيس كبير يصنع من الصوف والوبر، وكانت مادة صنع اللباس هي "المِلْف"، أما الجزئيات فقد تشكل من صدرية قصيرة، و"شاشية" وفوقها "عمامة مكيّة" والتي شُدَّت بخيط من الحرير الأسود، ولعل الملمح العام يشير إلى أن هذا اللباس لباس حربي يختلف عن اللباس المدني.

ج-الاعتزاز بالخيل والتغني بها:

من الملامح التي لا يمكن إغضاء الطرف عنها هو علاقة أبناء الجزائر بالخيل، فقد وُلدوا «مفطورين على حب الفروسية، وركوب الخيل والطرب لصهيلها، وهو ما يعكس فعلا امتداد إنسانها إلى الإنسان العربي القديم، الذي عاش طوال حياته فارسا، ويقول الشعر في الخيل فيجيد في وصفها،أو هوا لمظهر الذي ينبئ وبدون شك بمروءته وفتوته، يجعله محافظا على هذه الصورة الاجتماعية معتزا بها، معتبرا إياها عنصرا أساسيا من عناصر مكونات رجولته»[21] وفروسيته، وما يؤكد هذا هو جمال الوصف الشكلي والحركي الذي استطاع الشاعر أن يقدمه لنا في الأبيات الآتية:

ارسل له سيدنا من الخيل مطية * ما وقفت قدام باي ولا قايد**

من عند أحمد للعلى جات هدية * بنت السلطان شهرت جات تعيد**
من الخيل تطير كالروحانية * على ظهر الفرصة الا فرش وارقد**
جبهتها تقول قصعة مكفية * خارجة العينين والخشم مكدد**
دارعليها سرج شهرة عربية * ماذا تصنع ليد والعين تشاهد**

ليضيف قائلا:

ولاقاوه شلة رباعة من شبان * ونزل سيدي راحت العودة تشرب**
ويتباقص جلدها مرايا في حيطان * ومن ضيقة روحها بلا فارس تلعب**

وهو لم يقتصر على وصفها بل وصف السرج كذلك، والذي نسب طريقة تطريزه إلى أنها "عربية"، وقد عرف عن الجزائري تفننه في تطريز السروج بقدر تفننه في رعاية الفرس.

لنخلص في الأخير وبعد هذه الرحلة الموجزة إلى أن هذه القصيدة الملحمية المطولة قد أعطتنا صورة تفصيلية عن المجتمع الذي نظمت فيه، عن اعتقاداته وأخلاقه وتاريخه وانتمائه وعاداته وتقاليده من أكل ولباس وغيرها، ولكن لا يمكن إلا أن نقول إن النص من صناعة المخيال الشعبي ولا علاقة له بتاريخ السيرة بالمفهوم العلمي، واستحضار الرسول –صلى الله عليه وسلم- ليس إلا من باب إضفاء نوع من الشرعية على النص وموضوعه وحث جمهور المتلقين على تلبية داعي الجهاد إذا نادى عليه نداء الحق.

هوامش البحث:

*وقد اخترت هذه التسمية –الملحون- لأني أرى أنها الأقرب إلى دلالة هذا الجنس والأكثر تداولا

1 كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 01، 2003، ص:201.

2 الموقع الالكتروني: فيلوبريس مجلة الفلسفة والإبداع www.philopress.net

3 إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي، المغرب نموذجا، إلياس بلكا ومحمد حراز، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبوظبي، ط:01، 2014م، ص: 18.

4 حول مفهوم الهوية ومكوناتها الأساسية، إبراهيم القادري بوتشيش، www.falsafiat.rigala.net

5 الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، نبيلة إبراهيم، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ص:113.

6 الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر، شايب الدور أحمد، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2010، ص:86.

7 الفلكلور، ناصر صبار، دار الغرب، وهران،2004م، ص: 74.

8 المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، محمد العربي ولد خليفة، د.م.ج. الجزائر، 2003م، ص:109.

9 المرأة في قصص البطولة، واضح عائشة، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، 2015م، ص:42.

10 رواه الترمذي في صحيحه.

11 البعد الديني والوطني في الشعر الشعبي –صدى المجتمع الجزائري- محمد العرابي، ضمن: مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2006، ص: 148.

12 الشعر الشعبي البطولي ودوره في وحدة المجتمع الجزائري، عبد القادر خليفي، ضمن: مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، ص: 143.

13 الشرح الممتع على زاد المستقنع، محمد بن صالح العثيمين، ج:03، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2009, ص:441.

14 الهوية في مواجهة الاندماج عند الجيل المغاربي الثاني بفرنسا، محمد مسلم، وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر 2009، ص:91.

15 مفهوم الهوية الثقافية، غادة الحلايقة، 13-02-2018.https://mawdoo3.com

16 الثقافة عند الجابري هي: «ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية ما، تشكل أمة أو ما في معناها، بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء. وبعبارة أخرى إن الثقافة هي "المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت، والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يأمل» الهوية الثقافية، والوطن والأمة والدولة، عابد الجابري، 29-08-2005 **http://elaph.com**

17 تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، تح: خليل شحاتة، ج:06، دار الفكر، بيروت،ط:02، 1988م، ص: 136.

18 ديوان الشنفرى، الشنفرى عمرو بن مالك، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:02، 1996م، ص:59.

19 مذكرات وليام شارل قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)، وليام شارل، تع: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص:

20 ملامح الهوية في السينما الجزائرية، مولاي أحمد بن نكاع، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، 2013م، ص:143.

21 الخيل والفروسية في الشعر الشعبي الجزائري، لوصيف لخضر بلحاج، ضمن: مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، ص: 371.